قصائد عراقية من منفى موقت

. سـامي مـهـدي * .

١ ـ رحلة الطير

وأنا عجلانُ في سربٍ من الطيرِ أطيرْ،
دونما قلبٍ يغنّي
أو جناحٍ قادرٍ أن يستديرْ،
أخَذَتْنا الريحُ نحو الغربِ
حتى لم نعد ندري:
أهذا شوطُنا الأوّلُ في السبقِ
أمِ الشوطُ الأخيرْ؟

لم أكنْ أعْرف أنّا فُرَقاءْ
ولنا آلهةٌ شتّى، وأنّا سُفَهاءْ
لم نُصبْ من منطقِ الطيرِ
وَمِنْ سرّ «فريدِ الدينِ» إلاّ الغُلَواءْ.

لم نكنْ نبحثُ عن مسرًى
إلى بابِ السماءْ
بل بَحَثْنا عن فراديسَ على الأرضِ،
سَمِعْنا قصصًا عنها،
رأينا صورًا منها،
فقلنا: هي ذي مملكةُ العقلِ،
وأُولاءِ ذَوُوها العُقلاءْ،
وهي أرضُ اللّه،
لا شرقٌ، ولا غربٌ،
وكلُّ الناسِ أهْلوها، سواءٌ بسواءْ،
ثم طِرْنا نحوها بحثًا عن السرّ،
فلم نعثرْ على شيءٍ سوى هذا البلاءْ:
مدنٌ مرهقةٌ،
أفئدةٌ فارغةٌ،
والغُرماءْ
يسألونَ اللّهَ عن قصةِ قابيلَ وهابيلَ؛
ومالُ الفقراء
دُولَةٌ بين حليفينِ: غنيٍّ وقويٍّ؛
والبغاءْ
حِرْفةُ الساسةِ؛
أما الحكماءْ
فهم العقلُ الذي يوحي إلى القيصرِ
قَبْلَ الأصفياء:
أنّ خَلْقَ اللّهِ أجناسٌ،
وهُمْ من رُتَبٍ شتّى،
وكلُّ الضعفاءْ
غَنَمٌ في غابةِ القيصرِ،
والقيصرَ ربُّ الأقوياءْ.
ونَظَرْنا:
فإذا نحن، كما كنّا بدأنا، فُرَقاءْ،
وإذا الغابةُ لا مَنٌّ ولا سَلْوى،
ولا أيُّ عزاءْ؛
وأرسطو يُلْهم الإسكندرَ الغزوَ
وقهرَ المدنِ التعبى
ويغريه بقتلِ الأمراءْ.

وأنا أنظر في هذا المصيرْ
وأرى الإنسانَ في الجبِّ صريعًا يستجيرْ
وأرى القيصرَ ما زالَ، كما كان،
إلهًا يَمْلكُ الإبرامَ والنَّقْضَ وتصريفَ الأمورْ
قلتُ: لا بدّ إذنْ من رحلةٍ أخرى،
ومن شوطٍ أخيرْ.

رحلةٌ أخرى؟
إلى أين؟
وكلُّ الأرضِ بستانٌ لقيصرْ
وعلى أطرافِه الجندُ يقيمونَ له ألفَ معسكرْ
ويغنّون سكارى شِعرَ ڤرجيلَ
وروما تتبخترْ؟

---

* ـ شاعر عراقي يُقيم موقّتًا في القاهرة

رحلةٌ أخرى ولا شيءَ تغيّرْ
منذ أن دارت بنا الأرضُ،
وصار القردُ إنسانًا يفكّرْ؟

رحلةٌ أخرى وفي ظهرِكَ خنجرْ
وعلى صدرك رمحٌ،
وإلى جنبكَ لغمٌ يتفجّرْ؟

رحلةٌ أخرى ولم يبقَ من السربِ
سوى بعضِ بغاثٍ يتطيّرْ؟

ليكنْ (قلتُ) فإنّ الصمتَ أخطرْ
ليكنْ (قلتُ) فهذا اليومُ أغبرْ
وغدًا قد ينجلي الأفقُ وتصفو الروحُ أكثرْ
ونرى دربًا إلى الحكمةِ لم يعرفْهُ طاغوتٌ
ولم يَسْلكْه قيصرْ.
قلت: لا بدّ إذنْ من رحلةٍ أخرى
ومن شوطٍ أخيرْ
ولتكنْ رحلتُنا في نَفَقِ الإنسانِ،
بين الخيرِ والشرِ،
وفي كهفِ ظلامِ النفسِ،
في بئرِ الضميرْ،
قلتُ: لا بدّ لنا من أملٍ آخرَ
غيرِ العيشِ في هذا السعير.

ثم أَطْلقتُ جناحي وحلّقتُ بعيدًا، عميقًا،
غير أنّي لم أزلْ وحدي أطير.

٢ ـ وليمة قابيل

«من أيّما ظُلَمِ
وأيّ أزمنةٍ في الليلِ سرناها
حتى أتيناك،
أَقْبلْنا من العدمِ؟
أَمْ مِنْ حياةٍ نَسيناها؟»
نرى نثيثَ دمِ
نرى ازورارَ فمِ
نرى انطفاءَ عيونٍ كنّ كالدُّررِ،
نرى حكايةَ مقتولٍ وقاتلِهِ
في المشهدِ العكرِ،
وديّةً من دمِ المقتولِ يدفعُها
أخوه، والقاتلُ الشريرُ يَلْطعها
ويستلذّ بها،
هذا يقولُ له: شكرًا
وذا يقولُ له: عفوًا
وقد خَلُدا في ناعمِ السُّرُرِ
كلاهما كانَ ذا ثأرٍ فأدركَهُ
وكانَ ذا وَطَرِ
وقد قضاه،
وهذا لحمُ مَنْ قتلا
ممزَّقٌ بالنابِ والظُفُرِ
وليمةٌ لم يزلْ قابيلُ يُولِمها
وليس يبدي أمامَ اللّهِ من ندمِ
فكيف يَرْجعُ عنها مَنْ أَعَدَّ لها
وفيه ما فيه مِنْ غِلٍّ ومِنْ ضَرَمِ؟

لا تندمي
لا خيرَ في الندم
لا تألمي
لا نفْعَ في الألمِ
ولا تقولي سدًى: وا ضَيْعةَ البشرِ
في عالمِ النفطِ والدولارِ والجَرَبِ!
فكلُّهُم خدمٌ فيه
وسيّدُهم قَدْ قُدَّ من حَجَرِ،
وهذه حقبةٌ أزرَى الزمانُ بها،

لكنَّها لحظةٌ تمضي إلى عدمٍ
وفي غدٍ سوفَ تُذرى الذّاريات
على السُّلاّبِ والسَلَبِ،
فقطرةٌ من دمِ المقتولِ يشربُها ترابُه
هي بشرى صابرٍ بنبي
ولحظةٌ يُلهِمُ الرحمنُ آيتَها
وإذْ هُمُ حطبٌ في كفّ محتَطِبِ
حتمًا،
ولا بدّ منها،
وهي آتيةٌ يومًا،
وألاّ فلا عدلٌ ولا دَعَةٌ،
وهذه سُنَّةٌ للّهِ في الأُمَمِ!
حاشا،
ولا بدّ للمحروبِ من أملٍ،
حاشا،
ولا بدَّ للمغلوبِ من شَمَمِ.

٣ ـ عبور

خُطًى، ومَمَرٌّ، وبابْ
خطًى هي، لا بدَّ من مَشْيِها،
وممرٌّ إلى البابِ لا بدَّ من قطعِهِ،
لا لتقرعَهُ،
بل لتنسلَّ من فُرْجةٍ فيهِ
كالضوءِ يَنْفذُ من طبقاتِ الضبابْ،
ولا بابَ ثَمَّةَ لولا يداكْ
ولا صوتَ ينبتُ في القفرِ لولا صداكْ
فمن ذا هناكْ
سواكَ،
وقد عَمِيَ الليلُ،
والنجمُ تخمشُ أشواكُه عارِضَيْكْ
إذا التمعا، واستدلَّ عليك؟
فلا تَتَّئِدْ في خطاكْ
ولا تَتَّكِلْ قدماكْ
على هدأةِ الليلِ،
هُمْ ها هنا يَقْتلونْ
أخاهم، على عهدِهم بالأخوّةِ،
هُمْ ها هنا يَعْبرون
فرادى،
حيارى،
ولا يَحْملون
سوى عريهم:
شجر مشَّطَتْهُ الرياح
وعرّته كي لا يكونَ له ساعدٌ أو جناح
إلى أينَ؟
لا يعرفونْ!
متى
سوف يَسْتعلمون!
وقد يَتْركونَ
معابرَهم فجأةً نحوَ طيفٍ يلوحُ لهم
في السرابْ.

خطى يا خفيفَ الخطى وقليلَ الكلام
ففي مثل هذا الظلام
لا يرى أحدٌ غيرَ قامته:
شجر في ضبابْ
كلهم يقفون فرادى، وحيدينَ،
لا يسمعون سوى خفقِ أرجلِهم
وهريرِ الكلابْ
خطى هي في داخلِ النفسِ،
بين الأذينين منه
وبين البطينين
حيث المدى فارهٌ،
والطريقُ أمينٌ،
فلا ريبةٌ أو زحامْ.

القاهرة